

الدكتور أبو القاسم سعد الله

تَجَارِبُ فِي الْأَدَبِ وَالرَّحَلَةِ

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رحلتي الى المغرب

قلما اتجه الرحالة الجزائريون في القديم الى المغرب أو الأندلس. كان اتجاههم مثل اتجاه المغاربة أنفسهم، نحو المشرق، للحج أو طلب العلم أو الهجرة. وكثرت الرحلات المغربية نحو المشرق حتى أن من أراد أن يكتب عن الجزائر الماضية مثلاً لا يمكنه أن يستغنى عن رحلات التمغروقي، والعبدي، والبلوي، والعياشي، والغساني، والزياتي، والجامعي، وابن زاكور، والدرعي وأضرابهم.

وكان هؤلاء يسجلون انطباعاتهم كل حسب مشربه وتكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني، ومنهم من اهتم بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدث عن المدن ووصف «المسالك والممالك». ولكن أعمالهم جميعاً أصبحت لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع.

(*) نشرت في مجلة الثقافة ، عدد 18 ، 1973 م .

والرحالة الجزائريون قليلون اذا قيسوا بالرحالة المغاربة ، وأقل من القليل أولئك الذين اتجهوا منهم نحو المغرب بدل المشرق. واذا كان القرن الثامن عشر الميلادي قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو المشرق، رحلة ابن عمار ورحلة الورتلاني، فانه قد ترك لنا أيضا رحلة يتيمة نحو المغرب وهي رحلة ابن حمادوش التي أقوم بتحقيقها. وليس ابن حمادوش هو أول جزائري يتوجه الى المغرب، فقد سبقه كثيرون كابن قنفذ والونشريسي والمقري ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرقي، ولكنه أول جزائري حسب علمنا ترك لنا وصفا دقيقا لمُدن تطوان ومكناس وفاس وأحوالهما الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثامن عشر .

وتعقبا لآثار هؤلاء واضرابهم ذهبت الى المغرب خلال الصيف الماضي . وقد سجلت أثناء رحلتي كعادي في كل بلد أزوره، يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي، صبا عفويا لا تنسيق فيه ولا تفنن. وعند عودتي إلى الجزائر نظرت في هذه اليوميات فوجدت فيها ما يصلح للنشر الآن وما لا يصلح للنشر الا بعد انقضاء جيل. ولتشابك هذين القسمين في اليومية الواحدة فصلت ان انسج هذا العرض لأخبار الرحلة نسجا آخر لا يتقيد باليومية ولكن بالحادثة نفسها، مقتصرنا فيه على الأحداث والمناسبات الثقافية والمتصلة بها. وقد ذكرت في آخر هذا العرض بعض أسماء المخطوطات التي لم تكن تهمني مباشرة لأنني أعرف أنها تهتم بعض الباحثين في المغرب العربي والمشرق. أما اطلاعاتي وقراءاتي في المخطوطات الجزائرية فاني لم أذكرها الآن مؤملا ان افرد لها دراسة خاصة قريبا .

ولا أكتف نفسي ان الرحلة كانت ذات فائدة عظيمة لي. اذ لم أجمع فقط خلالها مادة جديدة نادرة لكتابي عن تاريخ الجزائر الثقافي، ولكنني تعرفت أيضا

على عدد من رجالات المغرب الحديث، شيبا وشبابا، يمينا ويسارا، وشاهدت في جولاتي (رغم أنها كانت محدودة) أشياء كثيرة انتزعت اعجابي لأنها جزء من حضارتي ووطني الأكبر. وقد كتبت يومياتي بحرية مطلقة كما استخلصت هذا العرض بحرية مطلقة اذ لم أكن مدينا بالولاء لأحد، فلا الجزائر أوفدتني حتى أشعر بالدين لها ولا المغرب استدعاني حتى أتقيد بدعوته .

* * *

زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي (من 29 يوليو الى 19 اغسطس 1973). ومنذ أمد طويل والأمنية تراودني لزيارة هذا البلد الذي تربطني به أكثر من رابطة، ولكن الرياح كانت دائما تميل بسفينتي الى اتجاه آخر. فقد سبق لي أن زرت بلدانا أخرى أبعد منه مسافة، عربية وأوروبية وأمريكية. لذلك كنت كثير العتب على نفسي، لا سيما في الآونة الأخيرة. فنحن والمغاربة نتحدث كثيرا عن الماضي المشترك، ونتطلع أكثر الى المستقبل الواحد، ونتدارس تاريخ بعضنا في المدارس والجامعات ، وعندنا عائلات مغربية ، وعندهم عائلات جزائرية ، وتتوافد علينا وفودهم كما تتوافد عليهم وفودنا حاملة الى هنا وإلى هناك مشاريع للتعاون في مختلف المجالات .

والسفر بالنسبة لي كالماء والهواء. ولو انقضت علي سنة دون أن أتنفس هواء بلد آخر لأحسست بالاختناق حتى في وطني، لا لأنه يفتقد نقاوة الهواء وعذوبة الماء، ولكن لأن تغيير الهواء في حد ذاته يصقل الذاكرة ويجدد العاطفة ويبعث على الفضول الذي هو أساس المعرفة، ويحقق «خمس فوائد» كان الشاعر العربي قد اختصرها في قوله :

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

. وأهواء العالم كمياهه لها أوزان وأذواق مختلفة، ومن ثمة مفعول خاص. فالهواء الذي امتلأت به رثنا زرياب غير الهواء الذي تنفسه بيتهوفن، والهواء الذي عاش به ابن رشد غير الهواء الذي استنشقه اينشتاين. وهكذا دواليك. من أجل ذلك عزمت على تحقيق أمنيته بشم هواء المغرب هذا العام، والنهل من ينابيعه

الحضارية الثرة، واكتشاف بعض مجاهله، والتعرف على أهله، والتزود من مخطوطات خزائنه لكتاني عن تاريخ الجزائر الثقافي .

وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النواصر بالمغرب، ساعة وربعاً. وكانت الطائرة قد حلقت بنا فوق سحب كثيفة أخذت في الانقشاع كلما توغلنا في اتجاه الغرب. وكانت تطير بمحاذاة البحر، ثم حوالي منتصف الطريق انحرفت الى اليسار وتعمقت في المناطق الداخلية بالمغرب. وكانت الساعة تشير الى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أن الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النواصر. وشعرت عندئذ ان الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة ، فقد تجمع فيها الجزائريون والمغاربة والتونسيون. واندجت فيها طبائعهم المتكاملة : لطافة التونسي وانسانية الجزائري وشهامة المغربي .

- 1 -

ولم تستغرق الاجراءات في مطار النواصر سوى بضع دقائق. وعندما اقتربت من مفتش الحقائب سألني من أين، فقلت من الجزائر، فقال بود : أهلاً وسهلاً، تفضل ! مشيراً بيده الى الباب. وخرجت من المطار وأخذت مقعداً في السيارة العمومية التي تصل المطار بمدينة الدار البيضاء، بعد أن دفعت مقابل ذلك خمسة دراهم (5 دنانير جزائرية). كانت المسافة بين المطار ووسط المدينة حوالي خمسة وثلاثين كيلومتراً. وفي آخر المطاف وجدت المحطة مزدحمة بالمسافرين الى مختلف الاتجاهات، ومنها اتجاه الرباط. وحول المحطة أصحاب السيارات ينادون على المسافرين مرددين أسماء المدن أو الاتجاه. وبعد مفاوضات ومناورات مع أصحاب سيارات الأجرة، الذين هم خبراء كل بلد في العالم، وجدت نفسي داخل سيارة أجرة ضخمة قديمة من صنع أمريكي، وركب في نفس السيارة ثلاثة رجال وامرأتان، واحدة منهما زوج لأحد المسافرين، بالإضافة الى السائق. فجموع من كان في السيارة سبعة أشخاص. وكانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف عندما تحركت السيارة من الدار البيضاء في اتجاه الرباط. وقد سقط الليل. وبدأت أنوار المدينة تتلألأ، بعضها يشكل أسهما، وبعضها يشكل دوائر، وبعضها ينافس نجوم الليل

أو بروق العواصف واللغة العربية فيها تنافس الفرنسية. وكانت الألوان المتعددة والأشكال الهندسية المتنوعة تكاد تخطف الأبصار وهي جميعا من دلائل التنافس والتأثير على المارة والسواح. ولكن مثلي لا يستطيع أن يحكم على هذه المدينة عندئذ، فأنا لم أرها نهارا، ولم أتجول في دورها وشوارعها. بالاضافة الى أن الوقت كان مساء الأحد. وستتاح لي زيارة هذه المدينة الكبيرة أثناء الرحلة .

تبلغ المسافة بين الدار البيضاء والرباط حوالي تسعين كيلو مترا، قطعناها كلها في ظلام الليل الدامس ورطوبة المحيط الأطلسي وازدحام السيارة على اتساعها بالمسافرين. وقد قطعنا المسافة في حوالي ساعة ونصف. واستطعت ان أقرأ وسط الظلام والتعب فوق جسر علامة تشير الى وادي المالح ثم أخرى تشير الى وادي شراط. وظللنا طول الطريق صامتين، ولم ينبس احدا بنا بمنت شقة، ومن ثمة لم نتعارف. وكان أحد الرجال يغط في نومه طول الطريق .

وكانت احدى المرأتين بدينة تلبس جلابة مغربية وتجلس في المقعد الامامي، أما المرأة الأخرى فقد كانت تلبس ثوبا أرويا وتجلس الى جوار زوجها في المقعد الخلفي. وأما الرجال فقد كانوا جميعا بالثياب الأروبية. وكان السائق كثير التدخين ويبدو أنه لم يكن يعمل لحسابه بل لحساب مالك آخر للسيارة. وكل سيارة من سيارات الأجرة الكبيرة التي تنتقل بين المدن تحمل رقما خاصا مع اسم البلد الذي تنطلق منه. بينما توجد في كل مدينة سيارات من النوع الصغير متميزة بأرقام وألوان .

توقفت بنا السيارة قرب مفترق شارعين رئيسيين في الرباط وهما : شارع الملك محمد الخامس وشارع الملك الحسن الثاني. ودفعت سبعة دراهم، ستة على الشخص وواحد على الحقيبة. وتوقفت قليلا أنظر يمينا وشمالا بحثا عن الاتجاه الذي سأسلكه. ثم سألت أحدهم عن الجهة التي فيها الفنادق، فأشار علي بالجزء الحديث من شارع محمد الخامس. وبعد أن سرت بضعة أمتار لمحت ضوءا يشير الى (فندق القولوا) الواقع في زنقة (شارع) حمص المتفرعة عن محمد الخامس. ولما كنت متعبا توجهت اليه وأخذت فيه غرفة بأحد عشر درهما. ورغم تعبني فلم أستطع أن أنام قبل أن أخرج وأسير قليلا في هذه المدينة التي سمعت عنها الكثير. فخرجت

أتجول وحدي في اتجاه جامع السنة (ولم أكن قد وصلته ولا عرفته في تلك الليلة)، وكان بصري لا يكاد يقع على الأرض، فقد كان معلقا في اللافات وأسماء الشوارع والبنيات والأضواء الباهرة، وكنت التفت يمنا ويسرة أحيانا في نفس الوقت، وأسير على غير هدى ويكاد من لا يعرفني عندئذ أن يقول عني بأنني مسا من الهوس. وكان طقس الرباط أكثر لطفا من جو عاصمة الجزائر الرطب، وتتخلل الأنفاس نسيمات منعشة يرسلها بحر الظلمات فتكسر من حدة لفح سموم الصحراء المترامية. يضاف إلى ذلك روائح الطيب المرسلة من الحدائق والبساتين التي تمتليء بها مدينة الرباط. ولم أعد إلى غرفتي إلا بعدما انقضى الهزيع الأول من الليل ولم أعد قادرا على السير.

وفي الصباح خرجت حوالي السادسة والنصف من الفندق وشرعت في التجوال في الجزء الأعلى من شارع محمد الخامس (الجزء الذي مشيته البارحة وكأني أريد التأكد مما رأيت) إلى أن وصلت إلى جامع السنة. وهو جامع ضخم وحديث مبني على الطراز الأندلسي - المغربي. وقد وجدت مكتوبا عليه أن الذي بناه هو مولاي محمد بن عبد الله سنة 1785م وأن الذي جدده هو الملك الحسن الثاني سنة 1969. ويضاء هذا الجامع ليلا كما تضاء صومعته العالية فيرى من بعيد كأجمل ما تكون الرؤية، وقد قيل لي بأن الفرنسيين كانوا قد خططوا لبناء كنيسة مكانه، ولكن الخطة لم تنجح لمعارضة المغاربة. فبنوا الكنيسة غير بعيد منه، ولكنها ظلت تفتقر إلى الموقع الذي يمتاز به الجامع. وتوجد على يمين هذا الجامع ثانوية مولاي يوسف (اليوسفية). وعلى جنبات هذا الجزء من شارع محمد الخامس عدد من المنشآت الإدارية والتجارية الهامة، كالبريد المركزي، ومجلس النواب، والبنك المغربي، ووزارة الإعلام وشركة طيران المغرب، وبعض دور السينما والفنادق، ومركز الشيكات، وغير ذلك. وفي وسط الشارع حدائق غناء تكسوها الخضرة وتعلوها الأشجار الباسقة. وتتفرع منه شوارع تحمل أسماء المدن العربية العتيقة والعواصم الحالية. مثل القاهرة وعمان ودمشق وجدة والطائف والقدس وبيروت وحلب وحمص. وهو تقليد أجاد فيه المغاربة وهو بلا شك مظهر من مظاهر العراقة والمحافظة على التراث العربي الإسلامي الذي سأحدث عن بعضه.

وعندما فتحت المدينة أبوابها على الساعة الثامنة توجهت الى الخزنة العامة (المكتبة الوطنية) بحثا عن المخطوطات التي جئت من أجلها. وقد وجدتني خارج سور المدينة القديم في حي غارق في الأشجار المعشوشبة المخضرة، وتطل منه المنازل البيضاء الناصعة كأنها بقايا كثران الثلج في غابة من غابات الشمال. وكانت الخزنة العامة تقع بالقرب من كلية الآداب لجامعة محمد الخامس، وتقع الكلية بدورها بالقرب من وزارة التعليم والفنون الجميلة. وإلى جانب قسم المطبوعات يوجد قسم الوثائق (المخطوطات) الذي هو ضالتي. وفي قسم الوثائق قضيت معظم أوقاتي ووجدت بكل التسهيلات التي لم أكن أتصورها، وتعرفت في هذا القسم على بعض العاملين فيه، وبالأخص الشيخ مولاي الطاهر الذي قضى ردها من حياته عاملا فيه حريصا على كل ورقة فيه، عارفا بالموجود من المخطوطات والمفقود منها. وهو لا يبخل بمعارفه ولا يتوقف عن فلي البطاقات وتسجيل الأرقام الصادرة والواردة من المخطوطات، ومراجعا ما استرد منها وما بقي على ذمة أصحابه، متصرفا تصرف من هو على يقين بأنه أمين على أشياء ثمينة وإن تلفها خسارة لبلاده وخسارة للعلم في آن واحد، وهو لا يفعل كما يفعل بعضهم في بلاد أخرى حيث لا وجود حتى لقاعة خاصة لمطالعة المخطوطات ! ومنذ ذلك اليوم بدأت أطلب المخطوطات الجزائرية التي وجدت منها هناك ثروة لا تقدر بثمن. وكنت أعرف أسماء بعض هذه المخطوطات من قبل كما أعرف أرقامها في الخزنة، ولكن بعضها قد اكتشفته بعد ممارسة للبطاقات والتعرف على ما تحتويه المكتبة من ذخائر ونوادير.

كنت حريصا أثناء إقامتي بالمغرب على توفير كل وقتي للبحث الذي جئت من أجله. لذلك تفاديت لقاء الأشخاص والاتصال بالاصدقاء. وبالإضافة الى البحث فقد كنت أعرف أن الفصل كان وقت عطلة للمدارس والجامعات، بل ولبعض الموظفين في الإدارات. ومع ذلك التقيت بعدد من المغاربة والجزائريين هناك بطريق الصدفة. من هؤلاء الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزنة العامة، الذي التقيت به عند خروجنا من المكتبة منتصف النهار. وقد سبق لي أن عرفت الأستاذ الكتاني في مؤتمر كتاب المغرب العربي الذي انعقد بطرابلس بليبيا سنة 1969، ولذلك لم يشعر أي منا بالغربة عن الآخر. والاستاذ الكتاني عضو

فعال في الخزنة العامة، يستفيد منها وتستفيد منه. وقد زرته في اليوم التالي بمكتبه بالخزنة فوجدته محاطا بأكداس من المخطوطات والمطبوعات القديمة وصناديق البطاقات حتى خيل الي ان الكتب هي طعامه وشرابه وكساؤه ووطاؤه. وقد أهداني بهذه المناسبة بعض أعماله الأخيرة منها :

(1) أبو عبد الله بن المناصف، المجتهد المغربي، فصلة من مجلة (الباحث) عدد 2، 1972، ص 1 - 72 .

(2) العثور على الورقات الأخيرة من كتاب البيان المغرب لأبن عذاري المراكشي، فصلة من مجلة (تطوان) عدد 10، 1965، ص 237 - 244.

(3) سلفية الامام مالك ، دراسة في 39 صفحة . (دون ذكر مكان طبعتها ، ولا تاريخ) .

(4) بمناسبة مرور عشرين سنة على تأسيس جمعية العلماء، دراسة في 8 صفحات على الآلة الراقنة نشرها في جريدة (العلم) المغربية سنة 1951، تحدث فيها بالخصوص عن صلته بالشيخ الابراهيمي. وقد جاء فيها ان للمرحوم الابراهيمي كتبا مخطوطة منها : «كتاب كبير» في المقارنة بين تاريخ العلم بالمشرق وتاريخه بالمغرب، وآخر «مطول» عن الشيخ باديس، كان الابراهيمي قد كتبه في منفاه بأقلو، الخ ..

(5) بيان تاريخي من مثقفي المغرب حول سياسة التعليم والغزو اللغوي الاستعماري للمغرب العربي، موقع من 500 شخصية مغربية، الرباط سنة 1970. 45 صفحة .

(6) واجب الأمة نحو تاريخها وأبطالها، نبذة في أربع صفحات على الآلة الراقنة عن حياة المرحوم الابراهيمي، وصلة المؤلف به

(7) صورة تذكارية بتاريخ 1935 بمدينة الجزائر. وتجمع الصورة الشيخ الكتاني جالسا بلباسه المغربي بين الشيخين ابن باديس والابراهيمي، يحوطهم بعض أعضاء جمعية العلماء البارزين عندئذ كالعقي والزاهري ومحمد العيد والميلي الخ . وكان الشيخ الكتاني قد جاء الى تلمسان لحضور

المؤتمر الخامس لطلبة شمال افريقية المسلمين باعتباره وكيلا للطلبة الأفارقة بفاس .

وقد أطلعني الأستاذ الكتاني أيضا على نسخة من رسالة كان المرحوم الابراهيمى قد أرسلها اليه سنة 1936 يطلب فيها منه ارسال بعض الكتب والمجلات، ويخبره فيها أيضا أنه (الابراهيمى) بصدد تحقيق كتاب (الكتيبة الكامنة) لابن الخطيب. كما أطلعني الأستاذ الكتاني على مشروع دراسة له عن الشيخ ابن باديس .

وأهدى الى الأستاذ الكتاني أيضا نسخة من كتاب الدكتور عبد الله منصوري الذي طبع في العام الماضي بالفرنسية في فاس. وعنوانه (الفكر الاسلامي في نجدة الانسان الحديث) . وهو في 129 صفحة + 16 . وأخبرني أنه (الكتاني) يملك نسخة كاملة من (فهرس المشرفي) ..

وقد أفهمني الأستاذ الكتاني ان عطلته الصيفية تبدأ يوم فاتح أوت (أغسطس) ولكنه أعطاني بطاقة بعنوانه المنزلي وطلب مني أن أكلمه هاتفيا في كل ما أحتاج اليه. فأستكثر خيره وأهديته نسخة من كتابي (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) لأنني أعرف اهتمامه بأدب المغرب العربي ورجال الإصلاح فيه. ومشينا معا حتى وسط البلد ، فكان يتحدث وأنا أستمع ولم أقاطعه الا نادرا، وكان كثير الاطلاع على حركة حزب الشعب والحركة الإصلاحية في الجزائر ورجالها وعلى العلاقة بينها وبين رجال الإصلاح والسياسة في المغرب، وكان له شخصا دور في ربط هذه العلاقة حيث كان يتردد على تلمسان ويعود بالآراء التي تمثل وجهة نظر الجزائريين في القضايا المشتركة. وقد ذكر لي أسراراً عن خطط الشيخ باديس لو طال به الاجل وعن الشيخ الابراهيمى مما جعلني أتأكد من أن كثيرا من الجزائريين يجهلونهم. وليت الأستاذ الكتاني يكتب مذكراته عن فترة الثلاثينات والاربعينات حتى يستفيد منها الجيل الصاعد وحتى لا تضيع كثير من الحقائق في صدور الرجال .

ومن الجزائريين الذين التقيت بهم في المكتبة الآنسة نادية داودي، وهي تعد أطروحة في النثر الفني الجزائري خلال القرن الماضي وأوائل الحالي لنيل شهادة

دكتوراه الدرجة الثالثة من جامعه الجزائر. والتقيت أيضا بالاستاذ محمود بوعيداد مدير المكتبة الوطنية الجزائرية الذي جاء يبحث عن نسخ جديدة من كتاب الحافظ التنسي (نظم الدر والعقيان). ويعمل بوعيداد على الجزء التاريخي من هذا الكتاب لنيل دكتوراه الدرجة الثالثة في التاريخ من جامعة الجزائر أيضا. وقد قال لي بأنه يعرف الرباط جيدا لأنه كان قد عاش طويلا في المغرب. وذات يوم جاء الأستاذ الهاشمي التيجاني الى المكتبة أيضا. وكنت أعرف أنه يعد لدكتوراه الدولة بفرنسا في موضوع فلسفي، لكنني أجهل عنوان بحثه بالضبط. وهو أيضا من الذين يعرفون المغرب لأنه عاش فيه طويلا بل أظنه من مواليده. والتقيت أيضا بالأستاذ عبد الملك مرتاض رئيس قسم اللغة العربية بآداب وهران. وكان يبحث في قسم المطبوعات عن مادة بحثه لدكتوراه الدولة في الأدب من جامعة محمد الخامس بالمغرب عن النشر الفني الجزائري خلال عهد الاصلاح.

ورأيت وأنا في المكتبة شخصا كبير السن طويل القامة أبيض البشرة مرتديا ثيابا مغربية خفيفة بيضاء وحذاء أصفر. جالسا في ناحية منعزلة من القاعة. وكان يرفع صوته اذا تحدث، ومنذ دخوله القاعة والعمال يسلمون عليه بتقبيل اليد وأحيانا الرأس. وكانت الكتب تحمل اليه في لمح البصر، وينادي هو بصوت عال فيأتيه بسرعة. ثم يتبسط في الحديث ويجلس عنده أحيانا ثلاثة أو أربعة من رواد المكتبة، وينقطع صمت القاعة بالحديث عن مسائل فقهية أو أدبية أو معاصرة. وعندما سألت عنه قيل لي أنه الأستاذ عبد السلام الفاسي أحد أعيان المغرب وأحد الوزراء السابقين.

وتعرفت على الأستاذ محمد حجي، وقد تفضل الأستاذ ابراهيم الكتاني بتقديمي لبعضنا. والاستاذ حجي يدرس التاريخ في آداب جامعة محمد الخامس. وقد علمت أنه كتب رسالة نال بها الدبلوم في التاريخ عن (الزاوية الدلائية) ودورها في تاريخ المغرب وكم تمنيت لو اطلعت عليها، ولكن الحظ لم يسعفني. وتذاكرت معه قليلا لأنه كان أيضا في العطلة. تحدثنا عن مستوى الثقافة في المغرب العربي على عهد العثمانيين. و سألته عن كتاب (العكازين) الذي ألفه القسنطيني خلال القرن السادس عشر والذي جئت للبحث عنه في المغرب.

وأثناء وجودي في الخزنة العامة دخل شيخ طاعن في السن على رأسه قبعة رمادية (رغم الصيف)، ويميل الى القصر، وعليه سمة المصريين. انه الاستاذ عبد الله عنان المؤرخ المصري المعروف الذي اشتهر بأثاره عن تاريخ المغرب والاندلس. جاء الى قسم الوثائق يستعلم عن مخطوط قديم ويحاول الحصول عليه. وعندما عرفه الشيخ مولاي الطاهر قام له وقدم له الخدمات الضرورية. وكنت قد رأيت الاستاذ عنان في الطائرة التي جاءت الى المغرب. فقد كان في الجزائر يحضر الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي، ثم توجه الى المغرب للبحث والدراسة، ولعله قد توجه الى الأندلس (اسبانيا) بعد ذلك. وقد تذكرت عندما رأيت ما عليه هذا الشيخ من الحيوية والنشاط والانتاج شيوخ الجزائر وهم من الكسل العقلي وجمود القريحة وخمول الذكر، ما يفجر قلب الصخر.

معظم المثقفين المغاربة يعرفون الاستاذ محمد المنوني. يعرفونه حيا عاملا في صمت، ويعرفونه كذلك مؤلفا باحثا خبيرا بالمخطوطات، وأستاذا في احدى الثانويات، وكنت قد سمعت به في الجزائر، بل ورأيت له بعض المقالات عن المخطوطات المغربية. ولكن الوقت، كما لاحظت في البداية، كان وقت عطلة صيفية عامة، ولذلك لم أتعرف على الأستاذ المنوني الا في اليوم الأخير لي في الخزنة العامة حيث جاء اليها في زيارة خاطفة. وقد أخبرني أنه أصدر حديثا كتابه (يقظة المغرب الحديث) الذي وصل فيه الى سنة 1930، وأنه بصدد نشر الجزء الثاني من هذا العمل. ورغم قصر الوقت فقد سألته عن رحلة ابن طوير الجنة المغربي التي تحدث فيها عن الجزائر في بداية الاحتلال فوعدني بالبحث عنها. ولو طالت مذاكرتي للاستاذ المنوني لاستفدت منه معلومات جمة عما جئت من أجله، ولكنني عرفت منه أنه سيعود الى عمله بعد يوم فقط من مغادرتي للمغرب، أي يوم 1973/8/20.

وخلال الأيام الأولى بالمكتبة رأيت شيخا طويل القامة أسمر اللون، مرتديا جلابة مغربية وطربوشا، كان ينسخ كتابا لا أدري ما اسمه. وحمله كثرة تردادي على المكتبة على السلام علي فكنت أرد التحية من بعيد بالايحاء، الى أن عرف انني من الجزائر، فتقدم مني ذات يوم وسلم ثم شكأ إلي أنه كان قد أرسل مصحفا ومخطوطة عن تاريخ الجزائر القديم الى أحد المسؤولين الجزائريين ولم يصله رد وقال أنه سيرسل معي نفس الشيء الى المسؤول (الذي سماه لي)، ولكنه في النهاية

لم يفعل وانقطع عن المكتبة. وقد حدثني أن أسرته من تلمسان وانها هاجرت منذ حروب الأمير عبد القادر . وعندما طلبت منه ان يكتب لي اسمه وعنوانه كتب في دفثري ما يلي : «محمد ابن تازروالت التلمساني من سلالة المهاجرين من القطر الجزائري، تاريخ الاحتلال الفرنسي، وكان تاريخ الهجرة الى فاس يوم الاربعاء 24 من رمضان 1250 الموافق سنة 1830 ميلادي (كذا) ...»

- 3 -

وقد اعتدت أن أتجول في المدينة مساء بعد عشاء النهار جلبا لراحة عيني . وأصبحت أتجه، بعد التعرف على خطة المدينة، نحو الأحياء الشعبية. وذات مساء كنت أتجول في الجزء الشعبي من شارع محمد الخامس فقادتني رجلاي الى مكتبة كبيرة هي مكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي. ونظرت في واجهتها فاذا كتب كثيرة حديثة وقديمة عن المغرب منها (الترجمة الكبرى) لأبي القاسم الزياني و (تاريخ البيدق). ودخلت أتصفح بعض الكتب فوجدت نسخة مجلدة سليمة من كتاب (تحفة الزائر) للأمير محمد باشا في طبعته الأولى (1903)، وسألت عن الثمن فقبل لي خمسة وعشرون درهما. وهذا في الواقع ثمن زهيد بالنسبة لقيمة الكتاب ومع ذلك لم أقدم على شرائه لعدم وجود النقود معي من جهة ولأنني كنت اشتريت منه نسخة بالقاهرة سنة 1970 بثمانين جنيهات كاملة . وفي هذه المكتبة عرفت أن كثيرا من المثقفين الجزائريين يترددون هناك، وقد أروني طرودا من الكتب جاهزة للارسال في اتجاه الجزائر برسم وزارة الثقافة. وعرفت ان هذه المكتبة بمثابة ملتقى لبعض مثقفي الجزائر والمغرب، ولا سيما من الجيل الماضي. ومن الأسماء التي وردت على الألسن عندئذ المشائخ عبد الله الجراوي والد صديقنا الدكتور عباس الجراوي، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد خير الدين، وأحمد توفيق المدني ..

وعند خروجي مرة من هذه المكتبة صادفت الدكتور عبد الكريم كريم أستاذ في التاريخ بآداب جامعة محمد الخامس ومسؤول المكتبات بوزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة المغربية. وكنت قد تعرفت على الدكتور كريم في الربيع الماضي عندما جاء ضمن الوفد المغربي للمشاركة في الأسبوع الثقافي المغربي في بلادنا وفي لجنة التراث التي اجتمعت بالجزائر وضمت ممثلين عن أقطار المغرب العربي

الثلاثة. والدكتور كريم شأن كثير من أساتذة التاريخ في العالم يحب بلاده ويحاول اقناع الآخرين بحبها. وهويتكلم باندفاع وحماس شديد، وعندما عرف اني حديث عهد بالموصول الى المغرب أخذني في جولة على الأقدام في الحي الشعبي. فأراني مرتفع (العلو) من المدينة حيث دخل الفرنسيون ساعة اعلان الحماية على المغرب، وسور الأندلسيين الذي يحيط بالرباط، وحارة اليهود القديمة التي يسمونها الملاح (بتشديد اللام)، وشارع سيدي فاتح وبعض الفنادق حيث كان سفراء وقناصل الدول الأجنبية ينزلون في العهود القديمة. ورأيت هناك ميزانا ضخما قديما معلقا في سقف البهو. ومررنا بخانات عتيقة يسمونها (التريعة) حيث كان يجلس المغاربة كما في العهود السالفة يشربون القهوة أو الشاي ويلعبون الورق. وعلى مشارف هذا الحي القديم رأيت على بعد قليل مدينة سلا تتلأأ أنوارها وتنعكس على صفحة مياه المحيط فتزيدها رهبة وجلالا. وقد أخبرني زميلي كريم ان مدينة سلا لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن الرباط. كما أخبرني أن وفدا جزائريا يتكون من السادة عبد الحميد سقاي، ومولود معمري وبغلي قد غادر المغرب حديثا وكان قد جاء للمشاركة في ملتقى الآثار المغربي المشترك.

ولم يبخل علي الدكتور كريم بوقته وامكانياته. فقد تجول بي في حي السوقة المليء بالخضر والبقالة والدباغة والذهب واللحوم ... وكان كل مرة يتقدم من الباعة ويسألهم في جرأة كبيرة عن الأثمان فيجيبونه مبتسمين أو متعجبين بالثمن الحقيقي أو القريب منه. وكان أحيانا ينادي الباعة بأسمائهم ويسلم عليهم دليلا على خبرته بالمكان وبأهله. ويلاحظ المرء وفرة البضائع وتنوعها ورخصها في المغرب، كما يلاحظ رحابة صدر الباعة وتأديبهم مع المشترين. ومن الملاحظ كذلك أن الأسعار تخضع للمساومة وحذاقة كل من البائع والمشتري. ولم يفارقني الدكتور كريم في هذه المرة الا وقد انهكني التعب عقليا من عمل النهار وبدنيا من جولان الليل.

ولكن خدماته لي لم تنته عند ذلك الحد. ففي صباح الغد حدثني مولاي الطاهر في المكتبة بأن الدكتور كريم قد هتف له من الوزارة وأوصاه بي خيرا. وبعد بضعة أيام جاءني الى الفندق وانضم إلينا الأستاذ حسن الزهراوي المراكشي الذي كان يقضي بضعة أيام في نفس الفندق. وهو شيخ متقاعد يعمل في وزارة الثقافة والأوقاف والشؤون الإسلامية أيضا. وكان يرتدي الثياب المغربية. والأستاذ الزهراوي يعرف

الكثير عن الجزائر لأنه كان قد عاش فيها وعلم بالزاوية السنوسية بمدينة مستغانم، وكان قد قرأ لكتابها وعرف وجهات نظرهم، وما زال مثلاً يذكر رأي الأستاذ توفيق المدني في العثمانيين منذ قرأ كتابه (محمد عثمان باشا) وقد جلسنا في بهو الفندق واحضر لنا الشاي الأخضر وسهرنا حتى قرب العاشرة ليلاً. وتناولنا موضوعات شتى كالتأليف المدرسي والتعريب في الجامعة ونشر الكتب وحوادث التاريخ والرحلات. وبينما كان الدكتور كريم مندفعاً في حديثه لا يكاد يترك المجال لغيره كان الأستاذ الزهراوي هادئاً ينصت أكثر مما يتكلم. وتحدث الدكتور كريم بالخصوص عن عصر المنصور الذهبي الذي كتب فيه أطروحة الدكتوراه، وهو العصر الذي يوافق بداية العصر العثماني في الجزائر.

وتحدث زميلي كريم بحماس عن كتاب عبد العزيز الفشتالي الذي حققه ونشره بعنوان (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا). وقد أهداني نسخة منه. وهو من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة لسنة 1973 ويقع في 307 صفحات بدون الفهارس. وقد كتب له مقدمة في 24 صفحة. وفي الكتاب أخبار كثيرة عن العلاقات الجزائرية المغربية خلال القرن السادس عشر الميلادي. وأرجو أن تتاح لي فرصة التعريف أكثر بهذا الكتاب. وقد مكّني الدكتور كريم من عمل ثمين تقوم به الوزارة هناك وهو فهرس المخطوطات المغربية في مختلف المكتبات بالبلاد. وبفضل هذا العمل أصبح في إمكان الباحثين أن يطلعوا على ضالّتهم من المخطوطات حيث يوجدون بدون تجشّم عناء السفر والاجراءات المرافقة له. ورغم بعض الهنات المطبعية الواردة في هذا العمل فإن المشروع في حد ذاته عمل جليل وقد رأيت من هذا العمل فهرس مخطوطات مكتبة القرويين (ما زال غير كامل)، ومكتبة ابن سودة، وخزانة الجامع الكبير بمكناس، والمكتبة العامة بتطوان، وزاوية تنعملت، وخزانة الجامع الكبير بتازة، وخزانة ابن يوسف بمراكش، وخزانة تارودانت.

وقد أطلعني أيضاً على نسخة من فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأسكريال (مدير)، وهي في ثلاثة أجزاء أهداها له على ما أظن الملحق الثقافي الإسباني. غير أن هذا الفهرس قديم وهو مصور على نسخة ليني بروفنسال. وأعتقد

أن في الجزائر نسخة منها أصلية. وذكر لي الزميل كريم بأنه يعمل الآن على اعداد فهرس لمصادر تاريخ المغرب .

وكما لم يبخل علي الزميل كريم بعلمه فانه لم يبخل علي بطعامه. فقد دعاني للغداء على مائدته. وقد حملني من الفندق في سيارته الى حي الليمون الجميل، وهو حي تكسوه الخضرة ومعظم مساكنه من المغاني (الفيلات) ذات الطابقين، ناصعة البياض وسط الأشجار الباسقة. وتوجد في هذا الحي بعض السفارات الأجنبية. أما اسم الشارع الذي يسكنه فهو أبو نواس وكان الفرنسيون يطلقون عليه اسم الفريد دي موسيه ، ودخلنا المغني فوجدت العمال يتناولون الغداء ، وحوطهم أدوات البناء. وقد أخبرني الزميل كريم بأنه يوسع من المسكن بزيادة طابق فيه، وأنه كان قد اشتراه منذ سنوات بطابق واحد، وإن وسائل البناء عندهم متوفرة وكذلك الامكانيات كالسلفة للبناء ونحوه. كما علمت منه أن مرتب الأستاذ الجامعي في المغرب قد يصل الى ما يعادل أربعة آلاف دينار جزائري شهريا. لذلك لم أستغرب ان يقدم مثله على هذا المشروع الذي لا يقدم عليه الأستاذ الجزائري الا في الاحلام! وبعد التجول في حديقة المسكن توجهنا بالسيارة أيضا الى منزل صهره حيث تقيم أسرته مؤقتا في انتظار نهاية أشغال البناء. وهناك تناولنا الغداء بالأيدي كمعادة المغاربة وكان ثالثا ابنه جلال وهو تلميذ في الثانوية بينما ابنه الثاني الصغير، طه، يلعب من حولنا. وكان الحديث عن حملة استرداد الاراضي من الأجانب في المغرب وعن عيد مولاي ادريس الأكبر الذي كانت الاستعدادات جارية له في زرهون .

- 4 -

كنت قد تعرفت على الدكتور عباس الجراري في دمشق سنة 1971 أثناء مؤتمر الكتاب العرب، ثم عندما جاء الى الجزائر محاضرا خلال العام الماضي بدعوة من قسم اللغة والثقافة العربية بآداب جامعة الجزائر. وقد عرفت فيه التواضع الجرم والباحث المجد. وسبق لنا أن تهادينا الكتب. ومما أهداني كتابه عن (الرجل في المغرب - القصيدة) الذي نال به شهادة الدكتوراه في الآداب من مصر. (ط. المغرب، 1971، 715 صفحة). ثم تتالت علي كتبه وأبحاثه : من وحي التراث

(ط. المغرب، 1971، 184 صفحة). والثقافة في معركة التغيير (ط. المغرب، 1972، 195 صفحة). وموشحات مغربية (المغرب، 1973، ؟ صفحة). وهو الآن أستاذ كرسي الأدب المغربي في آداب جامعة محمد الخامس مع عناية خاصة بالأدب الشعبي على مستوى المغرب العربي. وهذه الاعتبارات كان السؤال عنه من المروءة. ولكنني عرفت عند وصولي الى الرباط أنه كان مع أسرته ووالده في افران يقضون جزءا من عطلة الصيف. وبينما كنت ذات ظهيرة خارجا من المكتبة وجدته على أهبة الانطلاق بسيارته بعد أن جاء يتفقد بريده في كلية الآداب المجاورة. وقد أوى إلا أن يدعوني حالا للغداء في منزله الواقع بحي أكدال الذي يشكل مع حي الليمون وحي السويسي المناطق السكنية الراقية في الرباط. وأكдал تعني باللهجة المحلية (كثير الشجر) أي الغابة. ومنزله عبارة عن شقة حديثة في بناية جديدة ذات ثلاثة أو أربعة أدوار. وأدخلني مكتبه الغني بأنواع الكتب والتحف والصور. (وقد كان يعمل في الخارجية قبل أن يلتحق بالتعليم). وتناولنا الغداء بمشاركة حرمه التي تشتغل بالحمامة وأطفاله الثلاثة محمد وألف وعلا. وكانت حرمه عندئذ تحامي في محاكمة القنيطرة، بينما كانت تجري محاكمة أخرى في الدار البيضاء.

وقد أتاح لي الدكتور الجراي التعرف على نواحي كثيرة من المغرب الثقافي والاجتماعي، بل أنه بكرمه وعلمه سهل مهمتي ووفر علي كثيرا من الاعتبار. ففي أحد الأيام أقام لي مأدبة غداء دعا إليها أيضا أصدقاء وأصدقاء الأساتذة: محمد برادة الذي كان عائدا لحينه من فرنسا بعد ان نال شهادة دكتوراه الدرجة الثالثة في النقد الأدبي برسالة عن أثر الناقد المصري محمد مندور، على ما أذكر، وإبراهيم السولامي الذي أعد رسالته لنيل دكتوراه الدور الثالث عن (الشعر الوطني المغربي) في كلية الآداب بجامعة الجزائر، وكان يستعد لمناقشتها، وعبد الملك مرتاض رئيس قسم اللغة والثقافة العربية بآداب جامعة وهران. وكانت جلسة ممتعة تناولنا الطعام الشهي الذي تفننت في إعدادة حرم الدكتور الجراي وأبرزت فيه تناولنا الطعام الشهي الذي تفننت في إعدادة حرم الدكتور الجراي وأبرزت فيه كل محاسن الطبق المغربي. وكنت أعرف الأستاذين برادة والسولامي منذ مؤتمر كتاب المغرب العربي في طرابلس 1969. والأول ناقد وله مشاركة في كتاب

(فرانز فانون أو معركة الشعوب المتخلفة، المغرب ، بدون تاريخ، 132 صفحة). والثاني شاعر وله ديوان مطبوع بعنوان (حب، تطوان 1967، 104 صفحات) وكلاهما كان قد أهداني نسخة من عمله منذ 1969. ويمثلان، مع الدكتور الجراي، وكوكبة أخرى من الزملاء المغاربة، المثقفين الحريصين على تثبيت دعائم التعريب من جهة والانطلاق بالفكر المغربي في آفاق التجديد من جهة أخرى.

وفي إحدى الجولات عرج بي صديقي الجراي بسيارته على الأحياء الهامة من مدينة الرباط. ومن هذه الأحياء باب شالة، والمشور (حيث القصر الملكي)، وحي السويسي حيث الحي الجامعي الجديد ومستشفى ابن سينا الضخم. وقد مررنا بفندق هيلتون حيث تنعقد المؤتمرات الدولية بالمغرب، وبالمرسى القديم لمدينة الرباط الذي اختفت معالمه الآن، وبالوادي والعلو، وحي يعقوب المنصور الشعبي، وحي المحيط الذي كان يسكنه الأسبان. وكان الصديق الجراي أثناء كل ذلك يصف لي معالم المدينة ويحدثني عن خصائص كل حي. ثم ابتعدنا عن المدينة بحوالي اثني عشرة كيلومترا فوصلنا شاطيء (تمارة) السياحي حيث المغاني (الفيلات) والمقاهي وفندق وسوق، الخ. وجلسنا في إحدى المقاهي نتناول مبردات، وكنا في مواجهة المحيط الأطلسي. وقد أخذتني قشعريرة ورهبة وأنا أسرح ببصري وراء المنظور وكانت الأمواج تعلو وتنخفض فلا تسمع إلا تصفيق الماء على الصخور. وكان الليل قد أسدل ستائره على المنطقة وتراجع السباحون عن الماء إلى السوق والمقاهي والمنازل، لأن رهبة المحيط وظلام الليل أقوى من طاقة الإنسان. وقد سبغ خيالي أحيانا وشعرت بأهمية هذا الموقع من العالم العربي والإسلامي بالنسبة للاطماع الدولية القديمة والمعاصرة.

واقتضاني البحث الاطلاع على ما في المكتبة الملكية من مخطوطات حول موضوعي. وخطبت صديقي الجراي في ذلك فرافقني إلى هذه المكتبة الواقعة في حرم القصر الملكي نفسه. وقد علمت أنها كانت مكتبة خاصة بالقصر ولم تفتح أبوابها للباحثين إلا في السنوات الأخيرة. وهناك تعرفت على الأستاذ محمد داود مدير المكتبة الملكية ومؤلف موسوعة (تاريخ تطوان) التي بلغت حتى الآن أربعة عشر جزءا. كما تعرفت على الأستاذ مولاي أحمد العلوي نائب المدير والأستاذ محمد الروداني أحد المحققين والعاملين بالمكتبة. وقد رحبوا بي أحر ترحيب وفتحوا

لي أبواب المكتبة وأمروا العمال بوضع جميع الفهارس تحت تصرفي، بما في ذلك فهرسة المكتبة الزيدانية. ودار الحديث بيننا عن المكتبة وتنظيمها الجديد، وعن الحركة الفكرية في الجزائر، وعن الصلات الثقافية بين البلدين. وقد لاحظت أن مثقفي المغرب عموما يشكون من قلة الاخبار عن الحركة الثقافية بالجزائر. وذهب بعضهم الى أن ذلك يعود الى اختلاف نظم الحكم. وقد أجبت الجميع بأننا في الواقع نشكو نفس الشيء عن الحركة الثقافية بالمغرب وأنه يعود في نظري الى سوء تطبيق مفاهيم الوحدة الثقافية بين أقطار المغرب العربي، وإلى عجز الأجهزة المسؤولة على التوزيع والنشر في أداء مهمتها .

وقد تذاكرت مع الأستاذ محمد داود في حياة الشيخ أحمد الورززي التطواني الذي قد زار الجزائر في القرن الثاني عشر للهجرة، وفي رحلة ابن حمادوش الجزائري الذي زار تطوان ومدن فاس ومكناس خلال نفس الفترة. وكان الأستاذ محمد داود طليق اللسان متواضعا لا يبخل بمعارفه، بل انه لم يبخل علي بسيارته التي كان يدعوني الى مرافقته فيها عند الخروج الى وسط المدينة تفاديا لوهج الشمس واختصارا للمسافة. وكانت هذه المرافقة فرصة لاستئناف الحديث عن البحث العلمي في المغرب وفي الجزائر. أما الأستاذ أحمد العلوي فهو أديب، خبير بخفيات المكتبة عارف بأنواع الخطوط مطلع على تاريخ وأحوال المغرب. وقد التجأت اليه في عدة مرات لفك تاريخ غامض أو لقراءة كلمة أتت عليها الأرضة، أو لحل لغز اسم مؤلف مطموس. فكان وجود بما عنده بدون تحفظ وبكل تواضع .

وقد لاحظت أن المكتبة كانت مقصدا للباحثين من المغاربة والمشاركة والأروبيين. واذكر أنني رأيت وأنا هناك الأستاذ يوسف خياط من لبنان يدعو الى مساندة عمله في قاموس (لسان العرب) لأبن منظور. ولاحظت باحثا أجنبيا يتردد على هذه المكتبة (وكذلك على الخزانة العامة) وعندما سألت عنه قيل لي انه مستعرب روسي يسمى ماكسيم كيكتيف، وهو أستاذ الآداب العربية في جامعة موسكو، وقد جاء الى المغرب للاطلاع على نسخة نادرة من ديوان المتنبي الذي يقوم بتحقيقه. وكان الأستاذ كيكتيف يحيي الجميع بأدب بالعربية وكان يسأل المشرفين على بعض غوامض التراكيب عند المتنبي . وقد تذكرت عندئذ قول المتنبي عن قوافيه :
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ورافقني صديقي الجراي مرة لزيارة الأستاذ محمد بن عبد الله مدير مجلة (دعوة الحق). وقد وجدته راجعا لتوه من الجزائر بعد أن حضر الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي. وقال لي بأن هذه كانت أول زيارة له للجزائر. وقد أبدى إعجابه ببعض علمائنا أمثال الشيخ أحمد حماني الذي دافع في الملتقى المذكور على الاتجاه العربي الاسلامي للجزائر ضد اتجاه المتبررين الذين يستعملون الدين لضرب القومية العربية. والشيخ المهدي البوعبدلي الذي قرأ له تحقيق كتاب (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) لأبن سحنون، والشيخ المرحوم نعيم النعيمي (الذي عرفه قبل وفاته) لتبحره في علوم الفقه والأخبار ودار الحديث حول أهداف الملتقى المذكور وتكاليفه، وتطرق الى الحياة الثقافية في الجزائر وفي المغرب. وقد أهداني العدد الأخير من مجلة (دعوة الحق) التي بلغ عمرها ست عشرة سنة والتي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة، وهي من أقدم المجالات الحية في المغرب وتلتف حولها نخبة من كتاب المغرب العاملين في حقل الدراسات الاسلامية والتاريخية والقانونية. ولفت نظري في هذا العدد (يوليو 1973) مقالة عن الشيخ عبد الحميد بن باديس بقلم الأستاذ الحاج أحمد معنيو. وقد ودعت الأستاذ بن عبد الله وهناته بالسلامة لنجاته من الحادث الذي فقد فيه سيارته.

وكان يوم الأحد 13 أوت 1973 يوما مليئا بالتجارب. انه يوم الدار البيضاء! فقد توجهت اليها رفقة صديقي الجراي بسيارته. وكانت معنا أسرته وخادمته. وأخذنا طريق الصخيرات. وقد رأيت هناك من بعيد القصر الملكي الواقع مباشرة على شاطئ المحيط، ولا تظهر منه لراكب السيارة سوى بعض القباب والجدران وبعض المداخل المحروسة. أما باقيه فتحجبه الأشجار. ورأينا في الصخيرات أيضا مجموعة من المغاني (الفيلات) التي قيل ان الطبقة المغربية الغنية تسكنها. ومررنا على وادي ايكم ووادي شراط ووادي المالح. وظهرت لنا مدينة المحمدية على بعد قريب. كما مررنا على قرية بوزنيقة التي بدأت تكتسب أهمية لوقوعها في مفترق الطريق الرابط بين الرباط والدار البيضاء. وكان الطريق جيدا والأرض منبسطة ماعدا بعض التعاريج القليلة عند عبور جسور الوديان المذكورة. ويستطيع المرء ان يلاحظ بسهولة بعض مظاهر الريف المغربي. والظاهرة البارزة أنه خلافا للريف الجزائري

مازال محافظا على طابعه التقليدي. وقد أحسست بالارتباط بالارض تماما كما أحس به عندما أجتاز سهل متيجة أو الهضاب العليا في الجزائر.

وصلنا الدار البيضاء ، حوالي العاشرة صباحا . ولم نقض في الطريق سوى ساعة وربع. وترك صديقي الجزائري أسرته عند أصهاره، عائلة الصائغ، وذهبت وإياه نتجول في المدينة الكبيرة . وأول حي توقفنا فيه هو درب السلطان. وهو حي مليء بالمكتبات العربية من أعلى طراز، حيث توجد أحدث الكتب المغربية والمصرية واللبنانية. ومعظم ملاك المكتبات من المغاربة، ولكن هناك أيضا لبنانيون وفلسطينيون. ومن أسماء المكتبات العالقة بذهني : دار الارشاد، دار الوحدة، دار الثقافة، دار احياء علوم الدين، دار الفكر، دار الكتاب، الخ.. ومن سوء الحظ أن هذه المكتبات تعلق أبوابها يوم الأحد. وقد رأيت هناك كتابين للأستاذ محمد الميلي طبعا في لبنان وهما : (فرانز فانون والثورة الجزائرية)، و (ابن باديس وعروبة الجزائر). ولا أذكر أنني رأيتهما في الجزائر قبل ذلك . ومن المناسب أن أذكر بأنني رأيت في المغرب مجلة (الثقافة الجزائرية تباع ، أما مجلاتنا الأخرى فلم أر لها أثرا . ولا تصل جريدتا (الشعب) و(المجاهد) اليومية الا بعد أسبوع أو أكثر من صدورهما. وقد رأيت هناك أيضا جريدة (الجزائر الأحداث). ومن ثمة عذرت المغاربة عندما يشكون من عدم وصول انتاجنا اليهم. ولا شك أن انتاجهم الينا يعاني نفس الظاهرة عندنا .

والدار البيضاء مدينة تجارية بكل معنى الكلمة. ففيها الشركات والبنوك المغربية والأجنبية بأعداد ضخمة. ومازالت بعض أسماء شوارعها لم تتغير كما تغيرت أسماء شوارع مدينة الرباط. وفي وسط المدينة حي تجاري للهنود الذين قيل أنهم نزحوا من مدينة طنجة بعد خضوعها للسيادة المغربية. ورأيت لفظة (حلال) مكتوبة بالعبرية على واجهة بعض دكاكين اللحوم. وتتمتع المدينة بساحات حديثة وشوارع فسيحة تتخللها الفوارات والاشجار والحداثق. وفيها مركز تجاري جزائري الى جانب مقر شركة الخطوط الجوية الجزائرية. ويحس المرء في هذه المدينة بأنه في نيويورك أو باريس لولا منافسة العربية للفرنسية في العناوين والاعلانات، ولولا بعض المظاهر الأخرى. ولها أحياء شعبية تعج أسواقها بالخلق حتى أنك تفقد صاحبك وسط الزحام لو تركته يغيب عن عينيك لحظة .

ومن وسط المدينة قصدنا بالسيارة ضواحيها. وقد مررنا على شاطيء المحيط حيث كان الناس يسبحون بأعداد تفوق خلايا النحل أو الطيور المهاجرة. وكأن الأرض صغرت فتجمع سكانها في شاطيء (الرمال الذهبية) و (عين الذئاب). وقد ضاقت المسابح الطبيعية فبنيت الى جوارها مسابح اصطناعية. وكانت السيارات الخاصة تصطف على جانبي الطريق تنافسها الحافلات العمومية. والناس يغدون وبروحون، يبيعون ويشتررون، يأكلون ويشربون، يتحدثون ويغنون، نائمون أو ساهجون. ومن حين لآخر كانت الأمواج تصعد مترا أو مترين ثم تتراجع وكأنها كانت في صراع مع المستحمين. أو كأنها قد ضاقت ذرعا بحرارة أغسطس التي أجبرت الناس على مغادرة بيوتهم الى المحيط. وفي الطريق الى منزل أصهار صديقي الجرياري مررنا بالميناء التجاري الضخم الذي اشتهرت به مدينة الدار البيضاء. وتناولنا العشاء في منزل آل الصائغ على الطريقة المغربية التقليدية، بغسل الأيدي قبل وبعد الأكل، ثم تناولنا الطعام بمقدمة الأصابع في طبق واحد موضوع على صينية كبيرة لامعة، بينما نحن جلوس على الحشايا الوثيرة. ويقع منزل الصائغ قرب درب السلطان في ضاحية سكنية متصلة بالمدينة. وهو عبارة عن مغنى (فيلا) ضخمة من طابقين، وفي القاعة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية. وفيها اجزاء منقوشة بنقوش مغربية - أندلسية. وقد علفت ثريا جميلة كبيرة وسط القاعة. وفي طرفي القاعة مقصورتان فيهما أيضا حشايا من نوع ولون آخر. وعلى الجدران علفت بعض صور الأسرة. ودار الحديث أثناء العشاء حول التقاليد الاجتماعية الجزائرية والمغربية. وكانت لحظات ممتعة تلك التي قضيتها مع هذه الأسرة الفاضلة التي جمعت بين القديم والحديث، كما جمعت بين الكرم العربي والعلم الأروبي .

وحوالي الساعة العاشرة مساء تحركت بنا السيارة نحو الرباط، سالكة طريق المحمدية. وقد مررنا ببعض المنشآت الصناعية مثل مصنع العجلات الذي تديره شركة (جنرال)، ومصنع آخر أظنه للعجلات أيضا بإشراف (كودير) ولكنه مازال لم يبدأ. وقد علمت أن سيارة (فيات) الايطالية يجري تركيبها في المغرب، وكذلك بعض السيارات الفرنسية. ورأينا على بعد قريب شعلة بترول تلتهب عالية بحذاء المحيط، فكانت تعطي لسكون الليل وظلامه لونا وحياة خاصة. وكان القمر على

يممتد طول الطريق يؤنسنا بتألقه وشمونه وكأنه كان يتحدى جميع الأضواء التي نمر بها، باقيا على تقاليد شيخ النجوم ورفيق العاشقين. ولم نكد نصل حتى كان الأطفال نياما والكبار متعبين . ومع ذلك فقد وجدت حرارة خاصة في يدي وأنا أصافح بها صديقي الجراي على الفرصة الثمينة التي أتاحتها لي بزيارة مدينة الدار البيضاء العجيبة .

وفي زنقة (شارع) القاضي عياض بالرباط تعرفت أيضا على الشيخ الأستاذ عبد الله الجراي ، والد صديقي الدكتور عباس، وقد تجاوز الشيخ الستين ولكنه ما زال في حيوية ونشاط ابن الأربعين. وقد قضى سني حياته في الأبحاث الإسلامية والتاريخية، وكنت قد سمعت به من قبل ورأيت بعض أعماله. زرته مرتين رفقة صديقي الدكتور عباس، الأولى للتعرف والثانية للغداء. وقد جلسنا في المرة الأولى بمكتبته الكبيرة التي يعتز بها كل الاعتزاز شأن العلماء العاملين. وهي مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوعات الحديثة والقديمة. وقد اطلعت على بعضها ، بما في ذلك بعض الآثار الجزائرية الهامة والنادرة . والكتب مجلدة، بعضها بطريقة فخمة. والتجليد عندهم جيد ورخيص الثمن بخلاف عندنا ، بالإضافة الى أنه صناعة محلية رائجة، ينفن فيها الحذاق بالخطوط والرسم العربية الجميلة. وقد عرفت أن الشيخ الجراي يكتب الآن مذكراته ووصل فيها الى سنة 1950. وأثناء شرب الشاي وتناول المرطبات دار الحديث عن الحركة الإصلاحية في المغرب والجزائر، وهي الحركة التي عاصرها الشيخ وساهم فيها ، وعن الطريقة والزوايا في البلدين ، وعن تجدد بعض العوائد القديمة في المغرب مثل الاذكار والحلقات والرقص الديني كالذي تقوم به جماعة الهداوة والعيساوية. وحضر معنا بالإضافة الى صديقي الدكتور عباس، أخوه عبد الواحد الذي يعمل قاضيا ويواصل دراسته في الحقوق، وأخوه الثاني (لم أذكر اسمه) الذي كان يدرس الطب. أما الشيخ فقد كان حليق الوجه، لطيف الحديث، يلبس نظارة رمادية، وكوفية وثيابا أوروبية، وحذاء مغربيا، وكان يرتدي جلاية مغربية فوق ثيابه الأوروبية ولكنه نزعها قبل أن ينضم إلينا.

أما في الزيارة الثانية للشيخ عبد الله الجراي فقد جمعنا فيها بين لذيذ الطعام وشهي الكلام. فبعد الجلوس في قاعة مفروشة بالزراي المنمقة والارائك الهشة والمحلة بالتحف الثمينة ، والمناضد المنقوشة بالزخرفة المغربية الأصيلة ، توجهنا إلى قاعة

الطعام حيث تحلقنا حول مائدة دسمة تبدأ بالبسطيلا المسكرة الملوزة، وتثنى بالدجاج المحمر المتبل وتنتقل الى الكسكسي المصفر بالزعفران الحر والمدهون بأصيل الدهان، وتختتم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء . ومرة أخرى استغنينا بالأصابع عن الشوك والملاعق، وبالجلوس العربي عن الجلوس الأوروبي، وبماء الابريق عن ماء العين. وعلى اثر الغداء عدنا الى قاعة الجلوس حيث شربنا القهوة ثم الشاي، وطاب الحديث وتشجن حتى شمل مواقف بعض العلماء في التاريخ من قضايا بلادهم ونظم حكوماتهم، وظهور وتطور التصوف والانعزال في العصور الاسلامية، وأحوال المغرب وشخصياته الغابرة. وأذكر أن الحديث شمل أيضا أثر الشيخ الجزولي صاحب (دليل الخيرات) في المغرب العربي، والخزرجي صاحب (الخزرجية) المشهورة ، وابن الونان صاحب القصيد المعروفة (بالشمقمقية) التي تباري الأدباء في القديم والحديث في تقليدها، وابن النحوي صاحب القصيدة المشهورة (المنفرجة) التي كنت حديث عهد بشرح العالم الجزائري أحمد النقاوسي عليها، والتي تبدأ هكذا :

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن صبحك بالبلج

ولا إخالني مبالغا اذا قلت بأن كل مثقف مسؤول في الوطن العربي كان وما يزال يتمثل بهذا المطلع الفريد، والطلع السعيد!

ولعلي لولماديت في ذكر ما دار في هذا الاجتماع لسال القلم مدرارا، واسودت الصحائف أخبارا . فلأقف عند هذا الحد ، مسجلا في نفس الوقت امتناني وعرفاني لآل الجراي الكرام .

- 5 -

ويحفل المغرب الى جانب شيخ العلم ومحافظي المكتبات، الذين هم غالبا من الجيل القديم، بنخبة طموح تحاول الجمع بين أصالة الماضي وجدة المستقبل، بين التراث العربي الاسلامي والعلم الغربي الحديث. ومن الجيل الجديد التقيت بالاستاذ أحمد شحلان. تقابلنا عدة مرات في الخزانة العامة دون أن يكلم أحدا الآخر، ثم أدى بنا تكرار المقابلة الى تبادل التحية، ثم أدى تكرار التحية الى التعارف وتبادل الحديث . وكان الأخ شحلان يسكن في نفس الفندق

الذي كنت أسكنه، بل وفي نفس الدور وعرفت أنه يعد في باريس رسالة لنيل دكتوراه الدور الثالث في النحو بعنوان «الدراسات النحوية في المغرب والاندلس على عهد الموحدين» بإشراف أحد العلماء الفرنسيين اليهود، ولعله الأستاذ كاهن. وكان الأخ شحلان هو الوحيد الذي ينافسني في الدخول الى المكتبة والخروج منها. فقد كان لا يعمل الجلوس ولا يكاد يرفع بصره عن المخطوط الذي بين يديه، ولا يتحرك الا ليسأل الموظفين عن بطاقة أو استعمال ميكرو فيلم أو نحو ذلك. وكان لا ينفك في صراع مع علماء النحو ومؤرخيه أمثال : ابن مضاء واللحمي وابن خروف والسيوطي وأضرابهم ..

وقد أطلعني الأخ شحلان على مخطط بحثه وأبدت له فيه رأيي بطلب منه. وهو متأكد من صعوبة عمله، ولذلك لا يتوقف عن المطالعة وعن تعلم اللغة العبرية التي عليه أن يقارن بين نحوها ونحو اللغة العربية. واذكر انني مرة وجدته في بهو الفندق يقرأ في نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالعبرية قام بترجمتها يهودي هو هارون بن شمس، وظهرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة في اسرائيل سنة 1971. وقد لاحظ صاحبي (وأنا لا أعرف العبرية) أن المترجم قد حذف من القرآن كل ما فيه مساس باليهود، وانه قدم وآخر في الترجمة .

وكثيرا ما رافقني الأخ شحلان في غدوي ورواحي ، وفي مطعمي وتجوالي . وطالما حدثني عن مدينته (مراكش) ومباهجها الماضية والحاضرة : سورها القديم ، ومكتبها الكبيرة ، وصومعة الكتبية التي تعود الى عهد الموحدين ، وعن القصبة العتيقة ، وعن شهير العائلات في المدينة الحمراء . وهو الذي عرفني بأستاذه حسن الزهراوي الذي أشرت اليه والذي كان الأخ شحلان قد قرأ عليه عندما كان الزهراوي استاذا بكلية مراكش . والوفاء للاستاذ من شيم كرام الطلبة . وقد خرجنا ذات مساء نتجول واتجهنا نحو صومعة حسان الشهيرة وضريح المرحوم محمد الخامس . واليك ما كتبت في هذه المناسبة أنقله من يوميتي بتاريخ 4 أوت 1973 بدون حذف ولا زيادة ، لأنني أحس أنني لو بدلت فيه الآن لبردت معانيه ، وهو :

« كانت الشمس قد غربت ولم يبق في الأفق إلا الشفق . وطلع من الشرق القمر الذي أخذ يكبر ، وظهرت النجوم في السماء والمصابيح في الأرض ، هنا في

الرباط وهناك في سلا التي يفصلها (عن الرباط) وادي بورقراق . وظهرت مياه المحيط تغمرها حمرة الشفق ، وصفحة وادي بورقراق تضيئها أشعة المصابيح والقمر . وعلى بعد رأينا القطار كأنه خيط من الضوء يتحرك وسط الظلام الذي بدأ يلف الأفق البعيد ، قال صاحبي انه قطار طنجة قادما الى سلا . هكذا بدت لي الطبيعة وأنا واقف أمام المحيط . على يميني ضريح وعلى يساري صومعة وبقايا عرصات جامع قديم . وفي جامع محمد الخامس الملحق بالضريح طالب شيخ يقرأ القرآن بصوت عال ، وهناك على بضعة آلاف من الأميال ، في الجانب الآخر من المحيط يرتلون الانجيل . انها ذكرى خالدة وصورة رائعة وموقف يدعو الى التأمل . تذكرت عقبة وهو كما تقول الأساطير يرفع سيفه ويدفع فرسه الى مياه المحيط يتحدى الخطر والظلام والمجهول ، وكأنه كان يلوح بيده الى الآخرين يعدهم ويمنيهم أو ينذرهم ويحذرهم ! تذكرت رجال الفتح ورجال السلطة الذين خلفوهم ، تذكرت الماضي والحاضر ، فاغرورقت عيناى وصمت في وجوم . ولاحظ صاحبي ذلك ، فقال انك لم تنظر شيئا . لو رأيت قصر الحمراء . ان المرء هناك يتفطر كبده ويصاب بالخرس . لقد أضعنا أشياء لا تعوض ! قلت هذا يكني ! أنظر هنا ، أنظر هناك ! انني أعيش الآن في عصر آخر . دعني أتأمل دعني ؟! » .

وما زالت الأعمال جارية في ضريح محمد الخامس . ولكن الجزء الذي انتهى منه يمثل أعجوبة في الصنعة والذوق والمهارة . فهو يحتوي على فسيفساء نادرة ، ورخام ملون ، ونقوش مذهبة في الأسقف والجوانب العليا ، وقد حفرت آيات من القرآن الكريم على مدار القبة الخضراء والصفراء التي يزيدها لمعان الكهرباء جلالا وجمالا . وللضريح أيضا عدة أبواب في الأسفل بعضها يقود الى الجامع الملحق به ، وبعضها يؤدي الى الخارج .. أما في الجزء الأعلى فله أربعة أبواب يقف أمام كل منها جندي يحمل سيفاً ويلبس الأبيض في شكل برنس مطوي الى الخلف ، وعلى رأسه قبعة تميل الى الخضرة الداكنة . وقد علقنا بالضريح أيضا مصابيح وثرىات نفيسة . وبالإضافة الى الجامع فان الضريح ملحق به أيضا مكتبة قيل لي انها تحت اشراف الأستاذ عبد الوهاب بن منصور .

أما صومعة حسان العتيقة ذات الموقع المثير والمتصلة بالضريح كما عرفت ، فغير مضاءة ولكن آلات الاضاءة كانت موجودة .

وفي أحد ايام الآحاد غضبت شمس وكثف ضبابه واشتعلت حرارته خرجت مع الأخ شحلان نتجول . كان يوم عطلة كما في الجزائر . توجهنا أولا نحو أعالي شارع محمد الخامس من جهة الحي الشعبي وصعدنا العلو حيث دخل الفرنسيون سنة 1912 . ويوجد على ما أظن بهذا المكان الآن ثكنة ومحكمة عسكرية . ووجدنا بالقرب من ذلك منفذا في السور يفتح على (مقبرة العلو) الواسعة والتي تلتصق بابستها بمياه المحيط . ومن ذلك المنفذ يجتاز بعض الناس المقبرة الى الشاطئ جاعلين ممرا قدما بين الأموات . وقد عبرنا أيضا حتى وصلنا الشاطئ . كان ضيقا ومزدحما . وقد نصبت فيه الخيام (وليس مظلات كما في الجزائر) ، واندفع الناس الى الماء بلهفة ، وكنت تراهم من بعيد كما ترى أسرابا من سمك السردين أو أمواجا من الطيور السابحة فوق الماء . وكان المحيط هادئا على اتساعه وعظمته ، ورغم تسميته ببحر الظلمات عند العرب فقد كانت الشمس تخترق مياهه حتى تنفذ إلى أغواره البعيدة . وقد اختلط أمام الرائي منظر الأحياء السابحين بمنظر الأموات الهامدين ومنظر القديم بالجديد . وهذا الشاطئ يقصده العامة ومن ليس لهم سيارات . أما الآخرون فيذهبون الى شاطئ تمار الذي سبق ذكره ، وبعض الشواطئ الأخرى البعيدة الواسعة والمجهزة .

وسرنا في طريق معبد حتى وصلنا الوداية وساحتها الكبيرة . ودخلنا من باب في هذا السور فوجدنا أنفسنا داخل حديقة غناء فيها من كل لون زهرة ، وفيها أيضا (متحف الوداية) الذي لم ندخله لأنه كان عندئذ مغلقا . وفيها أيضا صناعات تقليديون يزوقون الخشب بشتى التزاويق ويتفننون في ذلك غاية التفنن . وكانت بعض أبواب الحديقة نفسها عليها رسوم هندسية ملونة تأخذ من الطابع العربي الاسلامي القديم ، من خطوط وزوايا ومنحنيات . وهناك أيضا مقهى سياحي يجلس فيه بعض السواح على الدكات المغطاة بالحصير يتناولون الشاي الأخضر بالنعناع ويطل المقهى على المحيط الذي تتصافح مياهه أمام الناظر مع مياه وادي بورقراق الهاديء الوديع . وقد رأينا من هناك بعض الزوارق التي تحمل الناس من ضفة

الى أخرى من الوادي ، أي من ضفة الرباط الى ضفة سلا والعكس . وكان بعض الناس قد ضاق بهم ابط فأخذوا يسبحون في الوادي .

وفي مساء نفس اليوم اقتنصتني جاذبية مدينة سلا. فأخذنا الحافلة اليها ودفعنا خمسة وعشرين مليما فقط للواحد، وعبرنا اليها قنطرة حديثة فوق وادي بورقراق تربط بينها وبين العاصمة، ووصلنا اليها في حوالي عشر دقائق فقط. وعندما دخلت سلا تذكرت المؤرخ الكبير أحمد الناصري السلاوي صاحب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى). ودخلت المدينة العتيقة فلاحظت فرقا واضحا بينها وبين مدينة الرباط في المستوى الاجتماعي. وتجولت في سوقها الضيق المليء بالبضائع المتنوعة. وتوقفت عند باعة الكتب على الأرصفة فوجدت من بين مبيعاتهم كتاب (تنبيه الغافلين) و (كتاب الرحمة في الطب والحكمة) ، و (الروض العاطر) و (ديوان أبي نواس) و (سجع الكهان في استحضار الجان)، وبعض كتب الأدعية والاذكار. ورأيت اثنين من كتاب الأحجية فتوجهت اليهما وسألتهما عن المخطوطات (وفي بلادنا يعث كتاب الأحجية بالمخطوطات). لكنهما انكراني بعد ان عرفا مهمتي. وفي سلا يقبر الأموات في مواجهة المحيط أيضا. وبينما كنت أسير بحذاء المقبرة سألت عن احدى القباب فقيل لي أنها قبة سيدي ابن عاشر ، وعن مسجد فقيل لي انه لسيدي عبد الله بن حسون، وعن صومعة عالية لا شك ان القادمين من البحر يهتدون بها فقيل لي انها صومعة الجامع الكبير. وأثناء العودة الى الرباط تأملت مليا على ضوء الشمس صومعة حسان وضريح محمد الخامس اللذين كنت قد رأيتهما قبل أثناء الليل. ويشهد الأثر القديم والأثر الحديث بعظمة الاسلام وأصالة العروبة في الربوع المغربية .

ودعاني الأخ شحلان ذات مرة الى التعرف على صديق له هو الأستاذ مصطفى الشابي ومرافقتهم في جولة على شاطئ الرمال الذهبية. فقبلت الدعوة، وركبنا ثلاثتنا سيارة الأستاذ الشابي الى هناك. كان الوقت مساء السبت والجو حارا. وعرفت خلال الطريق أن الأستاذ الشابي قد انتهى من بحث لنيل الدبلوم عن وضع العائلات الكبيرة في المغرب خلال القرن الماضي، وانه يعمل الآن مدرسا في قسم التاريخ بكلية آداب جامعة محمد الخامس. ودار الحديث حول موضوع رسالته وحول الدراسات الجامعية عامة ومشكلة الاطارات الوطنية القادرة على الاحلال

محل الاطارات الأجنبية في المغرب وفي الجزائر. وقد سبّح الاخوان قليلا، وعاد الأستاذ الشابي بحفنة من الحمار. وأبت نفسي الا أن تعود بتذكاري من المحيط فحملت معي محارة الى غرفتي في الفندق وتركتها هناك حتى نشت فرميتها، ولا شك أنها قد تعذبت خلال اقامتها معي، ولكن الحب أيضا عذاب كما أن الموت عذاب!

- 6 -

لقد قطع المغرب أشواطاً في ميدان التعريب. وقد أشرت من قبل الى تأصيل الحضارة العربية الإسلامية بتثبيتها في الشوارع التي أطلقت عليها أسماء مدن شهيرة. ويلاحظ المرء وفرة الكتب العربية القديمة والحديثة، اليمينية واليسارية، وتعدد مكاتب البيع، وكثرة وتنظيم مكاتب المطالعة والبحث وتصدر في المغرب بعض المجالات والجرائد الأدبية والفكرية. فبالإضافة الى (دعوة الحق) هناك (الملحق الثقافي) لجريدة (العلم) وهو ملحق أسبوعي متنوع المادة كثير الفائدة، وهناك مجلة (آفاق) التي يصدرها اتحاد كتاب المغرب، وهناك أيضا مجلة (أقلام) التي تصدرها نخبة من المثقفين، بالإضافة الى مجلات متخصصة أخرى بعضها تصدر بالفرنسية. ويلاحظ المرء حرية المبادرة من جانب الهيئات والأفراد في ميدان النشر والتأليف. وحركة التأليف متقدمة الى حد كبير. ولا غرابة فالتباعة والوراقة والتجليد عريقة في المغرب. والتعريب الإداري يخطو كذلك أشواطاً كبيرة. فالمغربي يحمل بطاقة تعريف وجواز سفر مغربي أو مزدوج اللغة. ويستطيع أن يكتب الحوالة، ويعنون الرسالة، ويسجل البريد، ويرافع في المحاكم بالعربية. وليس هناك عقد ولا حساسيات كتلك التي تركها الاستعمار في بعض البلدان الأخرى. والناس يتكلمون في الشوارع والدكاكين، وفي الحافلات ودور السينما بالعربية، وقلما تسمع لغة أجنبية. لكن بعض العامة يستعملون أحيانا المحلية. وصمام الأمان لهذا الاتجاه نحو التعريب يكمن في غير المثقفين على لغة وطنهم وتحركهم عندما تقتضي الضرورة صفا واحدا كتلك الحركة التي نتج عنها البيان المشار اليه. وتساند هذا التيار تقاليد حضارية عريقة، وعائلات أثيلة كانت وما تزال تلعب دورا بارزا في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، ونخبة متوثبة تلقت ثقافتها في المغرب أو في المشرق وتقف الى جانب التعريب كمطلب وطني.

وقد سمعت وأنا في المغرب ان كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ستعرب تماما ابتداء من هذا العام (1973 - 1974). وسمعت أيضا أنه تحقيقا لهذا الهدف توجهت بعثة مغربية الى المشرق لجلب الأساتذة. وقيل لي ان الشروط التي وضعها المغاربة في الأساتذة هي : كون الأستاذ من حملة دكتوراه الدولة، كونه قد مارس مهنته في الجامعة خمس سنوات، توقيعه لعقد مدة خمس سنوات، قبوله تدريس كل الساعات التي تطلبها منه الكلية. وفي مقابل ذلك تضمن له الكلية راتبا شهريا قدره خمسة آلاف دينار جزائري، مع بعض التسهيلات الأخرى. فاذا تحققت هذه الخطوة فان المغاربة سيضمنون تكوين اطرار جامعية كفأة خلال خمس سنوات، وسيحققون الاكتفاء الذاتي عن الشرق وعن الجزائر أيضا. واذكر بهذا الصدد ان بعض العناصر في جامعة الجزائر كانت تعرقل دخول النخبة المغربية (والتونسية أيضا) الى الجامعة خوف انتشار «عدوي» التعريب الجامعي الى القطرين الشقيقين. ولكن هذه الخطوة المغربية في ميدان التعريب ستكون بدون شك دعما لتجربة التعريب الجزائرية التي ما زال بعضهم يحاول محاصرتها والتضييق عليها .

- 7 -

ومن الكتب المخطوطة التي لفت انتباهي دون أن تكون هدفا أساسيا لبحثي كتاب (فيض العباب وافاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب) لابراهيم بن أبي عبد الله النميري المعروف بابن الحاج. وقد تناول فيه حملة أبي عنان على قسنطينة ونواحيها ومنطقة الزاب وعنابة وتونس سنة 758هـ. وكتبه من تقييد عمه الذي كان مرافقا للحملة. وفي الكتاب قصائد كثيرة قالها الشعراء المرافقون في أبي عنان، وفيه كذلك أسماء لقضاة وعلماء معاصرين، بالاضافة الى وصف أدبي للبلاد المذكورة وذكر أخبارها العلمية والاقتصادية والسياسية. والكتاب ناقص من أوله حوالي ورقة فقط ، وكذلك ورقة رقم 2 و 3 مفقودة منه وهو مرقم الصفحات وآخر صفحة منه تحمل رقم 352. وهو بخط جميل ومعنون بالأحمر وبأسلوب أدبي فضفاض تضعيع فيه أحيانا الحقائق التاريخية التي يهدف المؤلف الى إيصالها. وبعض أوراقه ملونة بالأزرق أو الأصفر، الخ. وهو بدون تبويب، لكن فيه عناوين في اطار أحمر تبدأ هكذا (ذكر كذا..). في عبارة مسجعة. وفيه

تأكل أرضه . ومن المدن المذكورة فيه : تازي (كذا) ، المدية ، حمزة ، بجاية قسنطينة، عنابة، نقاوس، بسكرة، طولقة، القنطرة، تلمسان، مقرة. ويبدأ الاهتمام فيه بأحوال الجزائر من صفحة 107 الى آخر الكتاب وهو صفحة 352. ولا يوجد في المخطوطة اسم لناسخ ولا تاريخ نسخ .

وهناك كتاب في مخطوط ضخمة بعنوان (تجبير السياسة في تدبير الرياسة) ويسمى أيضا (بدائع السلك في طبائع الملك) تأليف العالم المؤرخ محمد بن علي بن الأزرق ، الأصبحي الأندلسي ، المتوفي في سنة 875هـ والنسخة التي اطلعت عليها تعود الى سنة 1272هـ وهي بخط جيد. وفي الكتاب مقدمة وبابان. تناول الكاتب في المقدمة التحذير من محظورات تخل بالمطلوب شرعا وسياسة . وتناول في الباب الأول جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان، أما في الباب الثاني فتحدث عن الواجبات التي يلزم السلطان القيام بها سياسيا. والمؤلف عميق النظرة واسع الاطلاع، وهو من مؤرخي الحضارات اذا صح التعبير، فقد أكثر من النقل عن ابن خلدون ووصف أحوال المغرب العربي والأندلس وقارنها مع أحوال المشرق، وتوسع في الحديث عن العلوم والعمران. ويذكر الكتاب أحيانا تحت عنوان (روضة الاعلام بمنزلة العربية من علوج الاسلام) ولعل هذا كتاب آخر للمؤلف . وعلى كل حال فقد رأيت أرقاما كثيرة لكتاب (بدائع السلك) وفي مختلف المكتبات : العامة، واليوسفية، والملكية، والأوقاف، والكتانية الخ .

وكنتم مهتما برؤية كتاب (الاكتفاء في أخبار الخلفاء) لأبي مروان عبد المالك بن أبي القاسم التوزري المعروف بابن الكردبوس، لأن عبد الرزاق بن حمادوش صاحب الرحلة التي أقوم بتحقيقها قد نقل عنه الكثير، وكان يسرد (كتاب الاكتفاء) مع شيخه ابن ميمون الجزائري. وتذكر المصادر أن ابن الكردبوس كان حيا سنة 575هـ. وكنتم أعرف من قبل أنه توجد من هذا الكتاب نسخ في تونس، بلد المؤلف، وفي مدريد ، وقد رأيت منه في المغرب نسخا كثيرة . منها واحدة في جزئين ضخمين في المكتبة الكتانية. والجزء الثاني غير التام يبدأ بتاريخ الدولة العباسية. وتوجد منه أيضا نسخ في العامة، والملكية، وتطوان، وغيرها. ومازلت الى الآن لم أقابل بين الأصل ونقول ابن حمادوش منه .

وتوجد نسختان من (ديوان ابراهيم الرياحي) التونسي الشاعر السفير العالم، الذي تخرج عليه الكثيرون ، منهم بعض الجزائريين ، وهو سفير تونس إلى المغرب . ولمحمد السنوسي التونسي أيضا (كناش) يحتوي على أشعار تونسية بخط السنوسي نفسه. والسنوسي رحالة وعالم تولى عدة وظائف في تونس خلال القرن الماضي. وله رحلة مشرقية مخطوطة سجل فيها مقابلاته مع الأمير عبد القادر. ورأيت نسخة كاملة من كتاب المؤرخ التونسي الشهير ابن أبي الضياف (اتحاف أهل الزمان ...) في أربعة أجزاء ، وكنت قد رأيت أيضا نسخة كاملة منه في اسطنبول سنة 1970 . وما رأيت لعلماء تونس أيضا (تحفة العروس) للتجاني، توجد عدة نسخ منها، و (بشائر أهل الايمان...) لحسين خوجة، نسخة من القسم الأخير منه، و (نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار) لمحمود الصفاقسي. وكنت قد رأيت نسخة من هذا الكتاب في باريس سنة 1972 ونهت عليها بعض التونسيين لعلمهم بحقوقها. وقد وصل فيه المؤلف الى سنة 1818، كما يحتوي هذا الكتاب على أخبار العلماء وتاريخ صفاقس. وكتب أحدهم (مجهول) عشر ورقات في (ترجمة ابن أبي الضياف) ما تزال مخطوطة. ولا أظن أن محققي تاريخه في تونس قد اطلعوا عليها .

واطلعت على أجوبة الشيخ التسولي التي أجاب بها الأمير عبد القادر حين سأل علماء المغرب عن بعض الفتاوي الفقهية. وكان التسولي قد أصدر اجابته باسم السلطان مولاي عبد الرحمن. وهي في مجموع من صفحة 2 إلى صفحة 94. وكان ابن الأمير محمد باشا قد اختصر الجواب في كتابه (تحفة الزائر) . ورأيت لأبي القاسم الزياني كتابه (الترجمان المغرب) نصفه بخط المهاجر الجزائري أبي حامد العربي المشرفي ، أي من صفحة 341 الى آخر الكتاب الذي يصل الى صفحة 632. وكان الزياني قد ألف كتابه هذا في مدينة تلمسان. وقد بدأه بآدم عليه السلام. ومن أبوابه آل عثمان وفتوحاتهم (الباب 14)، وبنو مرين وبنو عبد الواد حتى تغلب الترك (الباب 18)، السعديون بالمغرب والسودان (الباب 19)، ودولة الشرفاء بسجلماسة (الباب 20). والزياني كان صاحب مكانة في الدولة المغربية على عهده، وهو صاحب (الترجمة الكبرى) التي نشرها الأستاذ عبد الكريم الفلالي ، وصاحب (رحلة الحذاق لرؤية البلدان والآفاق) التي توجد منها نسخة مخطوطة. وقد توفي الزياني سنة 1249 هـ .

والى جانب هذه المخطوطات هناك (رسالة المعادن والأحجار) للعالم الجزائري التونسي أحمد التيفاشي ، و (زهر الأفكار في جواهر الأحجار) له أيضا . ويوجد من الأول نسخة على الأقل ومن الأخير عدة نسخ. وقد اعتنى بترجمة آثار هذا العالم الأوروبيون . أما اليوم فأعرف أن صديقنا الأستاذ أبو القاسم كرو يجمع آثار التيفاشي ويعتزم نشر بعضها والتعريف بحياة صاحبها .

و كنت أعرف أيضا أن ابن حمادوش قد نقل عن عبد الرحمن الحنبلي العلمي صاحب تاريخ (أنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لذلك اهتمت به ولاحظت وجود نسخة منه. كما ذكر ابن حمادوش أنه قرأ كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ) لابراهيم الاجداني الطرابلسي فكان يهمني أن أعثر على نسخة منها وقد تحقق لي ذلك . أما محمد بن علي الخروبي الطرابلسي أيضا ودفن في الجزائر والذي يقال انه ذهب في سفارة جزائرية الى المغرب، فتوجد من آثاره نسخ كثيرة من (كفاية المريد) و (الدرة في أصول الطريقة الزروقية) و (شرح صلاة ابن مشيش) ، وغيرها من كتب الطريقة والاذكار التي أثربها على معاصريه حتى قيل انه كان (عميل) السلطة العثمانية في الجزائر .

ولعلي لو ذكرت هنا كل ما وقعت عليه عيني من كتب الرحلات والتاريخ والآداب خلال رحلتي لأثقلت على القاريء . وحسبي هذه العجالة . أما ما طالعتهُ أو قيدته عن الجزائر بأقلام جزائريين «فحدث عن البحر ولا حرج» وهوبيت القصيد من كل الرحلة. ولعلي أقدمه في مناسبة أخرى بشكل أبجدي يفيد المستفيد، ويستزيد منه المستزيد .

الجزائر ، 14 نوفمبر . 1973